جـــامـعـة ابـــن خلـدون -تيـــارت-

كلية الحقوق والعلوم السياسية

قسم العلوم السياسية

مقياس: تاريـخ العلاقات الدولية

السنة: ثانية ليسانس علوم سياسية

الأستاذ: عمـــــر بكـــيري

المحاضرة الأولى: معاهدة واستفاليا

مقدمة:

سادت أوروبا خلال القرون الوسطى قوتان عظيمتان هما الكنيسة الكاثوليكية الرومانية و الإمبراطورية الرومانية المقدسة، و قد تألفت الإمبراطورية من الإمارات المتعددة الأحجام التي امتدت على مساحة تشغلها حاليا ألمانيا، التشيك، سويسرا، شرق فرنسا، النمسا، الأراضي المنخفضة، أجزاء من ايطاليا. و بما أن الإمارات الألمانية شكلت الجزء الأكبر من الإمبراطورية فقد عُرفت آنذاك باسم الإمبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة، حيث تمتعت فيها كل إمارة بشبه استقلال ذاتي تحت حكم الأمير، و كان الإمبراطور نفسه كاثوليكيا رومانيا من أسرة "هابسبورغ" النمساوية، و بسبب تولي النظام البابوي و الإمبراطورية الرومانية زمام السلطة كان الدين الكاثوليكي الروماني هو القوة المهيمنة في أوروبا إلى غاية بداية الإصلاح الديني الذي نادى به "لوثر" و "كالفن"، و بالتالي ظهور المذهبين "اللوثري" و "الكالفيني" كمنافسين للكاثوليكية، هذا التنافس ما فتئ أن تحول إلى صراع ديني بين الاتحاد البروتستانتي و العصبة الكاثوليكية ينتظر فقط شرارة صغيرة لإشعال الحرب.

أولا: حرب الثلاثون سنة

حاول الحكام البروتستانت الضغط على أسرة "هابسبورغ" الكاثوليكية لنيل مزيد من حرية العبادة، و رغم حصولهم على بعض التنازلات إلا أنهم لا يزالوا يتعرضون للاضطهاد، حيث أُقفلت عنوة كنيستان لوثريتان في بوهيميا(في تشيكيا)، و كرد فعل قام الأعيان البروتستانت باقتحام قصر براغ و ألقوا بثلاثة أعيان رسميين كاثوليك من نوافذ القصر، فكانت هذه الحادثة هي الشرارة التي أشعلت فتيل الحرب.

تفاقم النزاع الديني الذي بدأ في بوهيميا و تحول إلى صراع عالمي أوروبي في سبيل السيادة، حيث و على مدار الثلاثين سنة التالية انجرفت في تيار الحرب كل من اسبانيا، الدنمارك، فرنسا، هولندا، بدافع ديني و كذلك بدافع مصلحي أساسه الطمع و السعي وراء السلطة، حيث مرت هذه الحرب بأربعة مراحل: الحرب البوهيمية، حرب الدنمارك و سكسونيا السفلى، الحرب السويدية، و الحرب الفرنسية السويدية، و قد جرى القتال في أراضي الإمبراطورية لكنه تركز في الأراضي الألمانية.

رغم تفاقم النزاع و الدمار و الخسائر المادية و البشرية التي لحقت بهذه الدول، و رغم توق الشعوب إلى السلام إلا أن ذلك لم يحدث بسبب مصالح الحكام السياسية المتضاربة، و مع مرور الوقت فقدت الحرب طابعها الديني و طغى عليها الطابع السياسي المصلحي، حيث ظهر ذلك جليا في تورط فرنسا في هذه الحرب و انضمامها إلى الاتحاد البروتستانتي ضد العصبة الكاثوليكية، رغم اعتناق الفرنسيين للمذهب الكاثوليكي.

لقد سعى رئيس الوزراء الفرنسي آنذاك "الكاردينال ريتشيليو" إلى جعل فرنسا القوة العظمى في أوروبا و في إطار تحقيق هذه الغاية حاول أن يُقلص من سلطة و قوة و نفوذ إخوته في الإيمان "آل هابسبورغ" الكاثوليكين عن طريق تمويل الجيوش البروتستانتية في الإمارات الألمانية، و في كل من الدنمارك، السويد، هولندا، و بذلك تحولت الحرب إلى صراع سياسي من أجل السيادة و النفوذ في أوروبا.

ثانيا: مؤتمر السلام في واستفاليا و نتائجه

تعرضت أوروبا للخراب و الدمار و نتيجة لذلك أدرك الأمراء أخيرا أن القوة العسكرية لن تحقق الهدف الذين يسعون إليه و أن الحرب لا يمكن أن ينتصر فيها أي طرف، لذلك اتفق "فرديناند الثالث" الذي حكم الإمبراطورية الرومانية المقدسة و "لويس الثالث عشر" ملك فرنسا و "كريستينا" ملكة السويد على وجوب عقد مؤتمر يجتمع فيه كل الأطراف للتفاوض على شروط السلام، و تم ذلك

فعليا ابتداء من سنة 1643 في مدينتي أوزنابروك و مونستر في مقاطعة واستفاليا الألمانية و تم توقيع المعاهدة سنة 1648و من نتائجها:

إقرار مبدأ السيادة بين الدول الأوروبية، حيث تعهد الموقعون على المعاهدة احترام الحدود الجغرافية لباقي الأطراف و عدم التدخل في شؤونهم الداخلية، و بذلك ولدت لأول مرة دول حديثة ذات سيادة مستقلة عن نفوذ البابا أو الإمبراطور، حيث أصبحت فرنسا قوة عظمى إضافة إلى النمسا و السويد و استقلت هولندا و سويسرا، في حين انعكست المعاهدة سلبا على الإمارات الألمانية التي دمرت الحرب العديد منها و بقيت مقسمة تحت سيطرة حكام أجانب.

الاعتراف بالمذاهب الكاثوليكية و اللوثرية و الكالفينية على حد سواء، و بذلك أنهت المعاهدة الحرب الدينية التي قامت لثلاثين سنة، لكنها لم تحقق السلام الدائم لأنها قضت على العامل الديني كسبب للحرب و لم تستطع إلغاء عوامل أخرى مسببة لها كالعامل السياسي و الاقتصادي.

ثالثا: تأثير معاهدة واستفاليا على العلاقات الدولية

تعتبر معاهدة واستفاليا نقطة تحول في العلاقات الدولية لأنها قامت بـ:

- سن نظام للمؤتمرات و المفاوضات و الدبلوماسية، و بالتالي أصبغت الصبغة القانونية لنظام جديد في العلاقات الدولية الأوروبية، حيث وضعت مبادئ تنظم سلوك الدول هي أساس قواعد القانون الدولي تتعلق بمفاهيم السيدة، حقوق الملاحة و التجارة، نظام المؤتمرات و إرسال السفراء.
- القضاء على نفوذ كل من البابا و الإمبراطور و قيادتهما للدول؛ بمعنى القضاء على سيادة البابا و سيادة الإمبراطور في الأراضي الأوروبية، و القضاء على الولاء المزدوج للسلطة الدينية و الزمنية و توحيدهما في إطار الدولة القومية الحديثة.
- إلغاء الدين كعامل أساسي محدد للدول في تشكيلها و في علاقاتها فيما بينها، و بالتالي تم التمهيد إلى علمانية الدولة و فصل الدين عن السياسة و الحكم.
- تكريس مبدأ الحرية الدينية و الذي تطور لاحقا إلى حرية سياسية.
- إقرار مبدأ المساواة بين الدول الأوروبية المسيحية بغض النظر عن مذهبها الديني و طبيعة نظام الحكم فيها.

- فتح المجال أمام تنافس من نوع جديد بين الدول الأوروبية، بظهور الظاهرة الاستعمارية خارج أوروبا، و بالتالي تحول الصراع بين الدول الأوروبية داخل أوربا إلى تنافس استعماري و صراع خارجها.
- اعتماد فكرة التوازن الدولي أو نظام لتوازن القوى كوسيلة أساسية لحفظ السلم و الأمن الدولي؛ و هو المبدأ الذي يقوم على تكاثف الدول الأوروبية فيما بينها لمنع توسع و هيمنة دولة أخرى، كما حدث عندما دخلت أوروبا في حرب ضد فرنسا، حينما سعى "لويس الرابع عشر" إلى توسيع أملاكه عل حساب جيرانه و الهيمنة على القارة الأوروبية.

لقد أدت معاهدة واستفاليا من خلال مبادئها و نتائجها إلى تحقيق السلام الأوروبي المبني على السيادة و عدم التدخل في الشؤون الداخلية للدول لما يفوق قرنا من الزمن، إلى أن جاءت الثورة الفرنسية و الحروب النابليونية التي نسفت هذا المبدأ و قضت على السلام و التوازن الأوروبي، فاندلعت حربا ضروسا على الأراضي الأوروبية لم تنته إلا بانهزام فرنسا و عقد مؤتمر فيانا وفق قواعد و مبادئ جديدة تحكم العلاقات الدولية الأوروبية.